مقاربات مفاهيمية في فكر الحداثة ومابعد الحداثة:

يشكل تيار ما بعد الحداثة أهمية بالغة على الأصعدة كافة وفي كل المجتمعات الإنسانية دون إستثناء وذلك نتيجة نزعته الشمولية ولأن الحداثة التي سبقته وأرتبط بها بسبب كونه قائماً من خلالها ومن خلال وجودها الممهد له، إذ قامت الحداثة برسم مسارات جديدة للانسان امتلك عبرها رؤيته الجديدة لنفسه وللعالم، تلك الرؤية التي إختلفت عن العصر الكلاسيكي حيث حاول تيارالحداثة الاعتماد الكلي على النزعة الانسانية والتشريع للانسان بذاته فأصبح الانسان هوالمركز، بناءاً ونتيجةً لقيام الثورة الصناعية والعلمية في كافة المجالات في الحياة الأوربية، لذلك حاولت الحداثة التاسيس بناءأ على العقلانية وإقصاء المتخيل الأسطوري والعقائدي والميتافيزيقي، ولان ما بعد الحداثة قائمة على تقويض و انقاض الحداثة، لذا فإنه من الممكن تحديد ملامحها في ظل علاقتها بها .

وعلى الرغم من الاجماع العام في الفكر الغربي على ان ثمة تحولاً فكرياً وثقافياً حاصلاً في المنظومة الفكرية والثقافية للحضارة الغربية الحديثة، الا انه لم يكن هناك اجماع بشأن طبيعة هذا التحول الذي تمثله مابعد الحداثة، حيث طرحت فكرتين مهمتين في موضوعة مابعد الحداثة مثلتها مجموعتين كل واحدى منها تفسر مابعد الحداثة وفق تأثر كل مجموعة ببيئتها الثقافية الخاصة، مما اعطاها صفتها وتميزها عن الآخرى. المجموعة الاولى التي مثلتها (المدرسة الفرنسية) ترى ان مابعد الحداثة ماهي الاقطيعة للمنظومة الحداثية، والحداثة برآيها مرحلة انتهت وبزعت بدلها مرحلة مابعد الحداثة وخيرمن مثلها (دولوز، دريدا،جان بودريارد، فرانسوا ليوتار)، في حين نظرت المجموعة الثانية (المدرسة الالمانية) على ان مرحلة مابعد الحداثة هي امتداد وتواصل للمنظومة الحداثية وان الحداثة تمتد الى مابعد الحداثة وخير من مثل هذه المجموعة (يورغن هابرماس) الذي دعا الى "التواصل مع الحداثة أو النظرية التواصلية او التواصل العقلاني في المجتمع ..وان مشروع الحداثة لايزال لم يستنفذ طاقته كلها " [١].

لذى تحديد مفهوم مابعد الحداثة يكون من الامور الصعبة، ومحاولة تحديد ملامحها وسماتها يكون نوعاً من الامساك بمعنى مراوغ ومنزلق، أذ أنها متشعبة في العديد من المجالات المعرفية والأجتماعية والفنية، وقد اعتبرت مابعد الحداثة احد اهم الأشكاليات البحثية سواء في العلوم الأنسانية أو الفنون او النظريات المعرفية سواء من حيث التعريف، او التصنيف، كما ان الاثر الناتج عن مقولاتها وسماتها وتجلياته في الواقع الغربي كان ذا مردود هام وفاعل بما لايمكن التغافل او التغاضي عنهُ .

فقد ارتبطت مابعد الحداثة في وجودها على المستويين التنظيري والنقدي بحركة "الحداثة" التي تشكل القاسم المشترك في مسمى كل واحد منهما، بل ينسحب أيضاً على المستوى التتابع الزمني لكلتيهما، اذ ان الحداثة تسبق مابعد الحداثة في الظهور والتجلي كمصطلح، الا أن كل واحدة منها "تشكل حركة مادية من حيث التأثير الذي احدثته في الواقع الأنساني المعاش" [٢] .

وبذلك لايمكن فصل (الظاهرة) الـ "مابعد حداثية " حال تناولها بالدراسة والتحليل عن الظاهرة "الحدثية" ، اذ ان التتابع الزمني لكلتيهما هو احد الضرورات الأساسية واللازمة

---

[١] - خريسان ، باسم علي، مابعد الحداثة-دراسة في المشروع الثقافي الغربي،دار الفكر،٢٠٠٩،ص٢٦٥.

[٢] - مهدي عامل ، في تمرحل التأريخ ، مطابع دار الفارابي للطباعة والنشر ، بيروت ،لبنان ،٢٠٠١ ، ص ٣٢.

لفهم مجمل العوامل والظروف التي ادت لظهور(مابعد الحداثة). فقد"بزغت كظاهرة واكتملت عبر الزمن فشكلت (نمطاً انتاجياً) * خاصاً ولكل نمط من الانتاج زمانه الخاص او بنيته الزمانية الخاصة ، وهذا النمط يساعد في احداث عمليات جدلية اجتماعية تؤدي تداعياتها الى تغير ثقافي متتابع "[١] .

فأي تغير في بنية المجتمعات سواء كان تغيرا معرفياً او اجتماعياً او اقتصادياً بمثابة عملية ازاحة من قبل ذلك النمط الجديد على النمط الذي سبقه ، اذ أن هذا النمط الجديد المتكون لابد له من عوامل وأسباب تؤدي الى وجوده ومن ثم فاعليته داخل المجتمع والواقع ، كما ان هناك ايضاً العديد من العوامل التي تتسبب في زواله واندثاره مع مرور الزمن . ووفقا لمقولة عالم الاجتماع الفرنسي " هنري لوفيفر" انهُ يخضع " لمبدأ الوجود والبقاء النسبي ، والنسبيه من جانب السيرورة غير محدودة وكل لحظة او كل عنصر لايكون الا انتقالاً ، تأتي كل لحظة في موعدها ولايمكن الادعاء بأنها ستبقى " [٢].

ياتي تحديد مفهوم مابعد الحداثة كظاهرة غربية في مجالات المعرفة والعلم والفن، موازيا لفهم ظاهرة الحداثة التي سبقتها ومن هنا يجد الباحث ضرورة التصدي لجذور مابعد الحداثة من خلال التعرض للحداثة واسسها ومرتكزاتها والتي اعتبرت هي الاخرى من المفاهيم المستعصية على التعريف والتحديد ويصعب في الوقت ذاته الحصول على مفهوم ناجز جاهز ، كذلك ان مفهوم مابعد الحداثة ليس اقل من وصفه بانه مفهوم هيولي او اميبي، وليس من السهولة الامساك بتعرف لها، ووفق تعبير (ديفيد هارفي*) " لطالما استغلق علينا معنى الحداثة والتبس، لذلك فان رد الفعل المعروف بأسم مابعد الحداثة يظل هو الآخر مستغلقاً وبكيفية مضاعفة " [٣].

ان مقومات العالم " الحداثي الحداثي" اختلف عن "العالم مابعد الحداثي"، بسبب تغيرات في البنية العامة للمجتمع، فسيطرة نمط جديد في بنية المجتمع يسبب بالنتيجة حدوث حالة من التغيير الاجتماعي والمعرفي في المجتمع، عبر علاقتها الجدلية بالزمن والمكان، وهذه التحولات يكون تأثيرها في كافة تفاصيل الحياة، في المجتمعات التي تهيمن عليها الا ان " هذا (النمط اوالنظام) قد يستمر لعهود زمنية طويلة الامد، او يندثر وينتهي أمره بعد فترة وجيزة، الأ أن طول او قصر المعدلات الزمنية لسيطرة أي نظام من نظم الأنتاج لاترتبط في حقيقة الأمر بمدى فاعليته في المجتمع وأنما بقدرته على احكام السيطرة على تلك المجتمعات التي يوجد فيها ويمهيمن عليها " [٤].

---

* النمط الأنتاجي : يقصد به هو ذلك النمط الذي يشكل الخطاب المسيطر على المجتمع والذي يهيمن على كافه خطاباته الفرعية سواء المعرفية او الثقافية او الاجتماعية ، وان تحديد المراحل التأريخية التي تمر بها بنية اجتماعية معينة يستلزم في البدء تحديد نمط الأنتاج الذي ترتسم فيه المراحل هذه وتتحدد ببنيتة زمانه المتميز . للمزيد :ينظر مهدي عامل ، في تمرحل التأريخ ،المصدر السابق ،ص٣٢-٣٣.

[١] - عماد ، عبد الغني ، سوسيولوجيا الثقافة (المفاهيم والاشكاليات من الحداثة للعولمة)، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،٢٠٠٦،ص١١٦.

[٢] - لوفيفر ، هنري، نهاية التأريخ ، ترجمة :فاطمة الجيوشي ،منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق،٢٠٠٢،ص٩١.

* ديفيد هارفي: استاذ للأنثروبولوجيا في مركز الدراسات العليا التابعة لجامعة مدينة نيويورك، وكان من قبل أستاذ في جامعة أكسفورد ،الف عدداً من الكتب في الأقتصاد السياسي للعولمة والتمدن الحضري والتغيير الثقافي،منها ،الأمبريالية الجديدة١، وحالة مابعد الحداث.

[٣] - الشيخ ، محمد وياسر الطائري، مقاربات في الحداثة ومابعد الحداثة –حوارات مشتقاة من الفكر الالماني المعاصر، دار الطليعة للنشر ،بيروت ،١٩٩٦،ص١٠.

[٤] - ف.ج أ افانا سييف، الثورة العلمية والتكنولوجية ، ترجمة :موسى جندي،دار الثقافة الجديدة ،ط٢،القاهرة،٢٠٠٦،ص١٠.

وإذا كانت الحداثة تمثل هزة كاسحة لحقت بسائر بني الحياة، ومكوناتها ومستوياتها المختلفة وهي، من ثم، ليست تغييراً طبيعياً لتلك التغيرات التي يمكن أن نلحظها في حقب التاريخ الإنساني المختلفة، وهي كما يصفها (ماكفارلن) و(برادبري) في قراءتهما الشاملة للمنظومة الحداثية، انها تنتمي إلى تلك الهزات الحضارية التي تحدث بصورة منتظمة في تاريخ الفن والأدب والفكر، والتي قسمت على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : هزات بسيطة تتعلق بالمودة والتقليعة التي غالباً ما تأتي بها الأجيال المتعاقبة وتستمر هذه مدة لا تزيد على عشر سنوات .

المرحلة الثانية : الازاحات الكبيرة التي تصار بالتحولات العميقة الواسعة التي تخلفها ورائها ، وغالباً ما يستمر تأثيرها مدة طويلة تقاس بالقرن .

المرحلة الثالثة : ذلك النوع المدمر الكاسح (Cataclysm) الذي يقوض مساحات واسعة من البناء الحضاري والفكري ويتركها اكواماً من الاطلال تستثير الهمم لبناء البديل ، وحيث ولدت الحداثة نتيجة لذلك[١] .

اما البعض الاخر يرى " ان الحداثة قد تزامنت مع سياق الزمن التأريخي لبزوغ وتنامي الحركة (الأمبريالية*) الأستعمارية التي مارستها الحضارة الغربية في ذلك الوقت تجاه باقي حضارات العالم" [٢].

من هنا يجد الباحث انه من الممكن اعتبار الحداثة بكل مكوناتها وانشطاراتها وتفرعاتها وشموليتها من أهم الممهدات التي اخذ بها تيار (ما بعد الحداثة) في إيجاد أسباب وجوده ونشأته، ويشير معظم المفكرين والمشتغلين في هذا المضمار إلى الدعوة للرجوع إلى الحداثة اولاً من اجل وعي وإدراك ما بعد الحداثة , لذا كان من الضروري ان تتم معرفة الحداثة قبل الدخول في عالم (المابعديات) كسبيل ادراك وفهم وترسيم وتحديد لأهمية موضوعة البحث, وكلا المفومان يعدان من المصطلحات الزلقة متعددة الاتجاهات , لذا صار لزاماً ان ينظر إلى المصطلحين وفق اتفاقاتهما و تناقضاتهما معاً .

---

[١] - برادبري ، مالكولم ، جيمس ماكفارلن ، الحداثة ، ج١، ت مؤيد حسن ، دار المأمون بغداد ، ١٩٨٧، ص ١٩ .

* الأمبريالية Emperilalism: مصطلح يعني حرفياً نزعة تكوين امبراطورية Empire-ism ويعود اصل استخدامه الى ستينات القرن التاسع عشر للأشارة الى الطموحات العسكرية والسياسية لنابليون الثالث في فرنسا، ثم استخدم فيما بعد لوصف تنافس الدول العظمى بشكل عام، بما في ذلك المنافسة العسكرية والسيطرة على المستعمرات في افريقيا وآسيا، اما في الوقت الحاضر فيكاد يقتصر على الاشارة الى الهيمنة الأستعمارية التي تمارسها الدول الاكثر تقدماً واصبح مصطلح الامبريالية مرادفاً لمصطلح الأستعمار . للمزيد ينظر:مارشال، جوردن:موسوعة علم الاجتماع،ج١،ص٢٠٩.

[٢] - علاء عبد العزيز ، مابعد الحداثة والسينما –اعادة قراءة،منشورات وزارة الثقافة الجمهورية السورية،دمشق،٢٠١٠، ص٢٢.